

حاضرة الدنيا

قصته بقلم همنفواي
ترجمت ماهر البطوي

الذين يطلبون السكنى مع عائلاتهم في مدريد خلال فصل الربيع ، الا ان اجرهم كان طيبا ، ولهم عملهم الثابت مع مصارعين مثقلين بمقود عمل كثيرة خلال الفصل القادم ، ولا شك ان دخل كل من هؤلاء الثلاثة « الملازمين » سيكون اكبر من أي واحد من المصارعين الثلاثة الآخرين . وكان مصارع من المصارعين الثلاثة مريضا ويحاول اخفاء ذلك ، والآخر قد ولت أيام شهرته القصيرة كشيء مستحدث ، وكان ثالثهم جباناً . وكان الجبان يوما ما شجاعا الى درجة غير عادية وماهرا للغاية الى ان اصابه قرن نور قاسي عنيف بجرح في أسفل بطنه في بداية موسمهم الاول كمصارع كامل ، وكان ما يزال عالقة به بعض عاداته أيام نجاحه . كان مرحا الى حد المبالغة ، ويضحك دوما بسبب وبدون سبب . وكان في أيام نجاحه مدمنا على تدبير المقالب ، ولكنه تركها الان ، ومن المؤكد انه لم يشعر بعد ذلك بميل اليها . وكان هذا المصارع ذا وجه ذكي صريح ، وكانت تصرفاته يشوبها شيء من التظاهر .

وكان المصارع المريض حريصا على الا يبدو كذلك ، ويعرض على الاكل ولو قليلا من كل صنف من اصناف الطعام التي تقدم على المائدة . وكانت لديه مجموعة كبيرة من الناديل يفسلها ويكويها بنفسه في حجرته ، وقد بدأ في بيع حلل المصارعة اخيرا ، وبيع واحدة بثمن بخس قبل عيد الميلاد ، وثانية في الاسبوع الاول من ابريل . كانت حللا باذخة ، اعتنى بها كثيرا دوما ، وكانت لديه واحدة اخرى باقية . وقبل ان يمرض ، كان عمله يبشر بالخير العميم كمصارع ، حتى ولو من ناحية الاثارة . ورغم انه لا يعرف القراءة فقد كان يحتفظ بقصاصات صحف تقول عنه انه خلال ظهوره لأول مرة في مدريد كان احسن من المصارع الشهير « بلمونتيه » . كان يتناول طعامه وحده على مائدة صغيرة ولا يكاد يرفع عينيه الى ما امامه . وكان المصارع الذي كان حدثا يوما ما ، قصيرا جدا واسمر اللون ، ويبلغ الرزانة . وكان يتناول طعامه ايضا على مائدة منفصلة ونادرا ما يتنسم ، ولا يضحك ابدا . كان من « فايا دوليد » حيث الناس غاية في الجدد ، وكان مصارعا ماهرا ، غير ان طريقته قد اصبحت قديمة حتى قبل ان ينجح في اجتذاب حب الجمهور عن طريق مزاياته من الشجاعة والقدرة الرصينة ، ولا يجذب اسمه في الاعلانات الان أي امرئ الى حلبة المصارعة . وكان الشيء الجديد فيه انه قصير جدا حتى انه لا يكاد يرى ما وراء كاهل الثور ، غير انه كان هناك عدد اخر من المصارعين القصيرين ، ولم ينجح هو في فرض نفسه على مزاج الجمهور .

اما فارسا المصارعة ، فكان احدهما نجيفا ذا وجه كوجه الصقر وشعر رمادي ، خفيف البنية ذا ذراعين وساقين في صلابة الحديد ، يرتدي احذية رعاة البقر في قدميه ، ويشرب حتى الثمالة كل مساء ويتطلع في هيام الى كل امرأة في الخان . اما الآخر فكان ضخما ، اسمر الوجه ، وسيم الشكل ، ذا شعر اسود كالهناد ويدين كبيرتين . كان كل منهما فارسا عظيما ، رغم ما قيل عن الاول من فقدانه الكثير من قدرته بسبب الشراب والتبدل ، وما قيل عن الثاني انه صعب المراس ميال للشجار حتى انه لا يكاد يستمر في العمل مع أي مصارع اكثر من فصل واحد .

تزرخ مدريد بفتيان يحملون اسم « باكو » ، وهو تصغير اسم فرانسيسكو ، وهناك مزحة من مدريد تحكي ان ابا نزل بها ونشر اعلانا في العواميد الخاصة بجريدة « الليرال » يقول : « الي باكو ، قابلني في فندق مونانا ظهر الثلاثاء ، غفرت لك كل شيء » . وبعدها تطلب الامر استدعاء فرقة من قوات الشرطة لتفريق الثمانئة شاب الذين حضروا اجابة على الاعلان . أما « باكو » هذه القصة ، الذي يعمل ساقيا في خان « اللواركا » ، فلم يكن له أب ليفخر له ، كما انه لم يرتكب ما يفخره له الاب . كانت له أختان أكبر منه ، تعمل كلتاهما وصيفة بالخان ، وقد وجدنا هذا العمل بفضل احدي وصيفات الخان السابقات التي انت من نفس بلدة الاخنتين ، واثبتت جدارتها وأمانتها في العمل ، فأكسبت بذلك بلدتها ونتاج بلدتها سمعة طيبة . وقد دفعت الاختان ثمن تذكرة السفر لشقيقتهما الى مدريد ومهدنا له سبيل العمل ساقيا تحت التمرين . جاء « باكو » من قرية مقاطعة « اكستريمادورا » ، تسودها احوال معيشة بدائية للغاية ، ومنها ندرة الغذاء ، والجهل بوسائل الراحة ، وكان العمل فيها شاقا منذ بدأ يعي ما حوله من أشياء .

وكان فتى حسن البنية ، له شعر فاحم السواد ، متموج الى حد ما ، وبشرة تحسده عليها اختاه ، وابتسامة طوعية صافية . كان نشيطا يؤدي عمله بمهارة ، ودودا لاختيه اللتين كانتا تظهران بمظهر الجمال والصرافة ، وقد أحب مدريد التي بدت له كمادته مكانا قضي المال . وأحب عمله الذي بدأ له غاية في الجمال والرومانسية ، وهو يؤديه تحت الاضواء البراقة في ملابس البياض الخاصة بالسهرة ، والطعام الوفير في المطبخ .

كان هناك ما يقرب من ثمانية الى اثني عشر نازلا قد اعتادوا الإقامة في الخان والاكل في صالة الطعام ، ولكن « باكو » - وهو اصغر ثلاثة من الساقين الذين يخدمون على الموائد - لم يكن يشعر شعورا حقيقيا بأحد من الموجودين سوى مصارعي الثيران .

وكان مصارعو الثيران من الدرجة الثانية يعيشون في ذلك الخان ، لان موقعه في شارع « سان خيرونيمو » كان طيبا ، والطعام فيه ممتازا ، وأجر الحجرة والاكل فيه رخيصة . ومن المفيد لمصارع الثيران الحفاظ على المظهر ، وان لم يكن مظهر الثراء ، فليكن مظهر الاحترام على الأقل ، لانه في اسبانيا تملو قيمة التناسق والهيبة على قيمة الشجاعة في نظر الناس ، ولذلك كان المصارعون يقضون ايامهم في « اللواركا » حتى ينتهي آخر قرش لديهم . وليس هناك ما يثبت أن أي مصارع للثيران قد ترك « اللواركا » الى خان آخر افضل منه أو أكثر بدخا ، لانه لا يمكن ان يرتقي مصارع للثيران من الدرجة الثانية الى الدرجة الاولى ، اما النزول الى مستوى أقل من اللواركا فكان مألوف طالما ان أي امرئ يستطيع الإقامة فيه ما دام يعمل في أي شيء كان ، ولم تكن قانونا الحساب تقدم الى النزول ما لم يطلبها الى ان تدرك المرأة القائمة على شؤون الخان ان الحالة ميؤوس منها . في هذا الوقت كان بالخان ثلاثة مصارعين ، واثان من فرسان المصارعة الطبيعيين ، وراشق سهام ممتاز . وكان « اللواركا » مكانا بدخا لفرسان المصارعة وراشقي السهام القادمين من « اشبيلية »

هملت طول عمري ، ويجب علي ان اعمل ما بقي لي من العمر . ليست لدي اية شكاية تجاه العمل ، العمل هو الشيء الطبيعي » .
 - « أجل ، ولكن افتقاد العمل يقتل المرء » .
 فقال النادل الاخر : « لقد عملت على الدوام . اذهب الى اجتماعك ، ليس هناك ضرورة لبقائك » .
 فقال النادل الطويل : « انك زميل طيب ، ولكن يتفصك الايمان بعقيدة » .

فقال النادل العجوز : « من الافضل افتقاد ذلك عن افتقاد العمل ، اذهب للاجتماع » .

ولم يقل « باكو » شيئا ، بل انه لم يكن يفهم السياسة ، ولكن كان يسره دائما ان يستمع الى النادل الطويل وهو يتحدث عن ضرورة قتل جميع القسس ورجال الشرطة . كان النادل الطويل لديه رمز للثورة ، والثورة ايضا فكرة رومانسية ، وكان هو نفسه يرغب ان يكون كاثوليكييا طيبا ، نائرا ، وان يكون لديه عمل منتظم مثل هذا على شرط ان يكون مصارعا للثيران في ذات الوقت .

قال « باكو » : « اذهب الى الاجتماع يا « اجنايو » ، سوف اتولى عنك عمك » .

فقال النادل العجوز : « سنتولى عنك نحن الاثنان » .

فقال « باكو » : « يكفي واحد فقط ، اذهب الى الاجتماع » .

فقال النادل الطويل : « اذن سأذهب ، وشكرا » .

وفي هذا الوقت ، في الطابق الاعلى ، كانت أخت باكو قد نجحت في الافلات من قبضة مصارع الثيران في مهارة تشبه مهارة المصارعين في الافلات من طوق خصومهم ، وقالت في غضب هذه المرة : « هذه سمة الناس الجائعين . مصارع ثيران فاشل ، بحمك الثقيل من الخوف . اذا كان لديك الكثير من هذه الجراء ، استعملها في الحلبة » .

- هذه طريقة الماهرات في الحديث .

- الماهرة ايضا امرأة ، ولكنني لست عاهرة .

- ستكونيها .

- لن يكون ذلك على يدك .

فقال المصارع : « اتركيني » . وكان قد شعر الان بعد ان صدته الفتاة ورفقت عنه بعري جبينه وخوفه يعود .

وقالت الأخت : « أتركك ؟ ومن لم يتركك ؟ الا تريدني ان ارتب الفراش ، انني اتناول اجرا على ذلك » .

فقال المصارع وقد تغضن وجهه العريض الحسن في تجهيم يشبه البكاء : « اتركيني ، أيتها الماهرة ، أيتها الماهرة الصغيرة القشرة » .

فقالت اذ هي تطلق الباب خلفها : « أيها المصارع ، يا مصارعي » وفي داخل الحجرة ، جلس المصارع على الفراش ، وما زال يعلو وجهه ذلك التجهيم الذي كان يحوله في الحلقة الى ابتسام دائم كان يخيف النظارة الجالسين في الصف الاول والذين كانوا يدركون حقيقة ما يشاهدون . وكان يردد لنفسه في صوت مسموع : « وهذا ، وهذا ، وهذا » . « كان يستطيع ان يتذكر أيام نجاحه ، ولم يكن قد مضى على ذلك سوى ثلاث سنوات . كان يستطيع ان يتذكر حلة المصارعة الثقيلة الموشاة بالذهب ، على كتفيه ، في ذلك الاصيل القانظ من شهر مايو ، حين كان صوته في الحلبة لا يختلف عن صوته اذ هو جالس على القهوة » وكيف كان يصوب النصل المرهف المشرع الطرف الى ذلك المكان في أعلى الكتف الذي يسوده الغبار ، على كتلة العضلات السوداء ذات الزغب فوق القرنين العريضين مقوضي الاشجار ، ذوي الطرفين المتشققين اللذين يهبطان الى اسفل اذ هو يهم بقتل الثور ، وكيف يفوس السيف في جسمه في سهولة مثل كومة من الزبد اليابس ، وراحة يده تدفع بمقبض السيف ، وذراعه اليسرى تلتوي الى اسفل ، وكتفه اليسرى الى الامام ، مرتكزا بثقله على ساقه اليسرى ، أما تلك المرة فلم يكن ثقله على ساقه . كان ثقله على اسفل

وكان راشق السهام رجلا في اواسط العمر ، سنجابي اللون، سريع الحركة رغم تقدم سنه ، وكان يبدو اذ يجلس الى المائدة رجل أعمال على شيء من يسر الحال . وكانت قدماء لا تزالان صالحتين للعمل في هذا الموسم ، وكان من الذكاء والخبرة بمكان حتى ان باستطاعته ان يعمل بانتظام حين تذهب السنون بصلايتهما . ولن يكون هناك فرق حين تذهب سرعة قدميه عن الان سوى انه سيكون خانفا على الدوام بينما هو الان هاديء واثق من نفسه في الحلبة وفي خارجها . وفي هذه الليلة ، كان الجميع قد غادروا غرفة الطعام ما عدا الفارس ذا وجه الصقر الذي يشرب كثيرا ، ومثمن الساعات ذا الوجه الذي ينم عن مكان نشاته ، والذي يعمل في اسواق ومهرجانات اسبانيا ، وكان كثير الشراب كذلك ، وقسين من « جاليشيا » جلسا الى مائدة عند الزاوية يشربان في سعة ان لم يكن في افراط . وفي هذا الزمان كان النبيذ يضاف الى ثمن الحجرة والاقامة في « اللواركا » وكان النازلان قد جلبا لتوهما زجاجات جديدة من « الفالدينياس » الى مائدة المثن ثم الى مائدة الفارس ، واخيرا الى مائدة القسين .

ووقف النادل الثلاثة في نهاية الحجرة ، وكانت القاعدة المتبعة في هذا الخان ان يبقوا في الخدمة حتى ينهض الزبائن من الموائد التي تدخل خدمتها في نطاق كل منهم ، غير ان ذلك الذي كان يقوم على مائدة القسين كان مرتبطا بموعد لحضور اجتماع نقابة الفوضويين ووافق « باكو » على ان يحل محله في خدمة هذه المائدة .

وفي الطابق العلوي ، كان المصارع المريض يرقد وحيدا على فراشه ووجهه الى اسفل . وجلس المصارع الذي لم يعد هدئا ينظر من النافذة مستندا للخروج الى القهوة ، بينما كانت أخت « باكو » الكبرى في حجرة المصارع الثالث الجبان ، وكان يحاول اقناعها بعمل شيء ترفض ادائه وهي تضحك . كان يقول لها : « هيا ايتها المتوحشة الصغيرة » .

وقالت الأخت : - كلا ، لماذا أفعل ذلك ؟

- من اجلي ..

- لقد أكلت والان تريدني تحلية ..

- مرة واحدة ، ما الضرر في ذلك ؟

- اتركني ، قلت لك اتركني ..

- انه شيء بسيط للغاية .

- قلت لك اتركني ...

وفي الاسفل ، في حجرة الطعام ، قال النادل الطويل الذي فات موعد انتهائه من العمل : « انظر الى هذه الخزائير السوداء وهي تشرب » .

فقال النادل الثاني : « ليس هكذا يصح الحديث ، انهم زبائن لطاف ، فهم لا يفرطون في الشراب » .

فقال الطويل : « هذه طريقة حسنة للحديث بالنسبة لي ، فهنا لمتنا اسبانيا الاثنان : المصارعون والقسس » .

وقال النادل الثاني : « ولكن ليس الموضوع موضوع مصارع معين او قس معين بالذات » .

فقال النادل الطويل : « أجل ، ولكن عن طريق الفرد فقط يمكنك ان تهاجم الطبقة ، من الضروري ان تقتل المصارعين الافراد والقسس الافراد ، جميعهم ، فمتننذ لا يوجد احد منهم » .

فقال النادل الاخر : « وفر هذا الى حين الاجتماع » .

قال النادل الطويل : « انظر الى وحشية مدريد ، الساعة الان الحادية عشرة والنصف ، وما زال هؤلاء يعبون الشراب » .

فقال النادل الاخر : « انهم لم يبدأوا الاكل الا في العاشرة ، وكما تعرف هناك اصناف كثيرة للطعام ، وهذا النبيذ رخيص الثمن وقد دفعوا ثمنه . انه ليس شديد المفعول » .

وتساءل النادل الطويل : « كيف يمكن ان يتجح تضامن للعمال وهناك اغبساء مثلك » .

فقال النادل الاخر الذي كان في حوالي الخمسين من عمره : لقد

بطنه ، وحين رفع الثور رأسه غاص القرن في جسده وتارجح عليه مرتين فيل ان يسدوه عنه . والان اذا ما تاهب لقتل الثور في الحلبة ونادرا ما يفعل ، لم يكن في استطاعته النظر الى القرنين ، لكن .. انى لاية عاهره ان يدرك كيف يعاني قبل ان يقدم على المصارعة ؟ وماذا جرب هؤلاء الذين يسخرون منه ؟ انهم جميعا عاهرات ، ويدركون كيفية استغلال ذلك .

واسفل ، في حجرة الطعام ، جلس الفارس ينظر الى القسين . لو كانت هناك سيدات في الحجرة لتطلع اليهن ، اما اذا لم يكن هناك سيدات فانه يجد متعته في التطلع الى أي اجنبي ، اجليزي مثلا ، ولما لم يكن هناك سيدات او اجانب في الحجرة آنذاك ، فقد اخذ يحلق في سعة ووقاحة في القسين . وبينما هذا مشغول بالحملقة نهض المثنى ذو الوجه التميز وطوى منشفته وخرج تاركا نصف النبيذ في الزجاجة الاخيرة التي طلبها . ولو كان قد دفع حسابه في الخان لكان قد أفرغ الزجاجة . ولم يرد القسان حملقة الفارس بمثلا . كان أحدهما يقول : « منذ عشرة أيام وانا هنا احاول مقابلته ، وكل يوم اجلس في غرفة الاستقبال ثم لا يقابلني » . ماذا يمكن ان نفعل ؟

السلمات « لا شيء .. ماذا يمكن للمرء ان يفعل ؟ لا يمكن معارضة السلطات » . لقد مكثت هنا اسبوعين دون فائدة ، انني انتظر ولن يقابلوني . اننا من البلدة المهجورة . حين تنفذ النقود يمكننا ان نعود - وهكذا بدأ المرء يتفهم الفعل الذي قام به اخونا « باسيليو » .. ما زلت لا اثق ثقة حقيقية في تكامل « باسيليو الفاريت » . ان مدريد هي المكان الذي يتعلم فيه المرء كيف يفهم . مدريد تقتسل اسبانيا .

لو انهم يقابلون المرء ثم يرفضون . كلا ، يجب ان يهدمك الانتظار ويهلك . حسن .. سترى .. يمكنني الانتظار مع الآخرين . وفي هذه اللحظة نهض الفارس على قدميه ، وسار الى مائدة القسين وتوقف عندهما ، برأسه الاسمر ووجهه الذي يشبه الصقر ، يحلق فيهما ويتسسم ..

وقال قسي منهما لزميله : « انه مصارع ثيران » . فقال الفارس : « ومصارع جيد » . وخرج من غرفة الطعام في حلته السمراء ، اتيق الخصر ، مقوس الساقين ، يرتدي سراويل ضيقة فوق حذائه الرعوي عالي الكعبين الذي يدق على الارض اذ يترنج في انتظام رتيب وهو يتسسم لنفسه . كان يعيش في عالم من الكفاءة الذاتية ، عالم صغير ، محكم ، مهني ، من الاحتفال كل ليلة بالمشروبات الروحية ، ومن الوقاحة . والان ، أشعل سيجارا ، وآمال قبعته على زاوية من رأسه ومضى عبر القاعة الى القهوة . وغادر القسان الغرفة توا بعد الفارس ، في عجلة « شاعرين بانهما اخر من بقي في قاعة الطعام ، ولم يعد هناك بالفرفة سوى « باكو » والنادل متوسط العمر . ونظفا الموائد وحملوا الزجاجات الى المطبخ .

وقال الفارس الذي يفصل الاطباق في المطبخ كان يكبر « باكو » بثلاثة اعوام ، وكان مفعما بالسخرية والشعور بالمرارة . وقال النادل متوسط العمر وهو يصب كوبا من الفالديبيناس للفلاس : « خذ هذا » . وقال الفلام وهو يتناول الكوب : « ولم لا » .. وقال النادل : وانت يا « باكو » ؟ .. وقال « باكو » : شكرا لك .. وشرب ثلاثتهم . وقال النادل متوسط العمر : « ساذهب الان » . وقال له : « مساء الخير » ..

وذهب ، وبقيأ وحدهما . وتناول « باكو » منشفا كان احد

القسين قد استعمله ووقف منتصبا ، ثابت الكعبين ، وارخى المنشف الى اسفل ، ولوح بذراعيه ورأسه يتابع الحركة في اهتزاز يمثل حركة مصارعة الثيران البطيئة . وتحول وتقدم بقدمه اليمنى قليلا ، وأجرى هجوما ثانيا حصل فيه على سيطرة بسيطة على الثور الخيالي ، وهجم لثالث مرة في بطء ودقة وخفة تامة ، ثم جمع المنشفة الى وسطه ودار بعجزه بعيدا عن الثور في نصف حركة اخرى . وكان غاسل الاطباق ، ويسمى « هنري » ، يراقبه في انتقاد واستهزاء . قال له : كيف حال الثور ؟ قال باكو : شجاع للغاية ، انظر . وانتصب بقامته الهيفاء ، وأجرى اربع حركات هجوم اخرى بالغة الاحكام ، في خفة ورشاقة ودقة . وقال « هنري » وهو مرتد ميدهته ، مرتكزا على مصرف المياه وممسكا بكوب نبيذه : وما حال الثور ؟ وقال باكو : ما زالت فيه بقية .. فقال هنري : انك تشعرنني بالسقم . - لماذا ؟ - انظر .

وأزاح هنري ميدهته ، ثم اشاح للثور الخيالي ، وقام بأربع حركات مصارعة كاملة مسترخية على طريقة الفجر ، وانهاها بسدورة حملت الميدعة لتتوي على شكل قوس حاد قريبا من انف الثور اذ هو يمضي بعيدا عنه . قال : « انظر الى هذا ، ومع ذلك فانا أغسل الاطباق » . - لماذا ؟ .. فقال هنري : « الخوف ، الخوف . نفس الخوف الذي تشعربه في الحلبة مع الثور » . قال باكو : كلا ، انا لا أخاف . فقال هنري : « كاذب ، الكل يخاف . ولكن المصارع يستطيع ان يتحكم في خوفه حتى يتمكن من السيطرة على الثور . لقد ذهبت الى مصارعة للهواة وشعرت بخوف شديد حتى انني لم استطع منع نفسي من الفرار ، ونظر الجميع الى المسألة على انها شيء طريف . وعلى ذلك ستخاف انت ايضا . ولو لم يكن الخوف لتحول كل ماسح احدى في اسبانيا الى مصارع للثيران . انك من الريف ، وستخاف أكثر مما أخاف انا » .

قال باكو : كلا ..

لقد مارس المصارعة مرات كثيرة في خياله ، وشاهد القرون مرات عديدة ، وفم الثور الجبل ، واذناه تختلجان ، ثم تهبط رأسه الى اسفل ويبدأ الهجوم ، وتندق حوافره على الارض ، ويمر به الثور الحار بينما هو يهز الوشاح . ويهاجمه مرة اخرى حين يهزه ثانية ، وثانية ، وثانية ، وثانية ، الى ان ينتهي بشني الثور حوله في نصف حركته العظيمة ، ويسير منتصبا ، وقد علقت بغض شعرات الثور في وشى حلته الذهبية من فرط قربه منه ، والثور واقف كأنما قد نام نوما مفرطيا ، والجماهير يهتف مصفقا .. كلا ، لن يخاف . ربما يخاف الآخرون ، أجل .. ولكن .. هو . انه يعلم انه لن يخاف . وحتى لو حدث وشعر بالخوف فقد كان يعلم انه يستطيع القيام بها على أي حال . انه واثق من نفسه . قال : « لن أخاف » .. وقال هنري مرة اخرى : « كاذب » . ثم قال : « لماذا لا نجرب ذلك ؟ » . - كيف ؟ قال هنري : انظر ، انك تحسب حساب الثور ولكنك تفصل القرون ، للثور قوة عظيمة في قرونه تلك التي تعمل عمل السكين ، فهي تظعن كالحرية ، وتقتل كالهراوة ، انظر .. « . وفتح أحد ادراج الموائد وتناول منه سكينتي لحم . وقال : « سوف أربط هاتين الى ارجل احد الكراسي » ، ثم سأمثل دور الثور معك حاملا الكرسي في مقدمة رأسي ، والسكينتان تمثلان القرنين ، فاذا نجحت في محاوره هاتين فانك عندئذ تعني شيئا » .

فقال باكو : « أعزني ميدمتك ، سوف نفعل ذلك في حجرة الطعام » .

قال هنري فجأة دون نبرة مرارة : « كلا ، لا تفعل ذلك يا باكو » .

قال باكو : بلى ، اني لست خائفا .

– سستشع بالخوف حين ترى السكينين تندفعان نحوك .

قال باكو : سنرى ، اعطني المبدعة .

وفي هذه الاثناء ، حين كان هنري يربط سكينتي اللحم نعلتي النصل ، مرهفتي الحد ، جيدا الى ارجل المقعد بمنشفين ملوثتين حول النصف الاسفل من كل سكين ، يلفهما باحكام ويقعد عليهما ، كانت اختنا « باكو » ، الوصيفتان ، في طريقهما الى السينما لمشاهدة « جريتا جاربو » في فيلم « انا كريستي » . وكان واحد من الفسين يجلس في ملابس الداخلية يقرأ في كتاب الصلوات ، والاخر يردي قميص نوم وينلو صلوانه على المسبحة ، بينما ذهب جميع المصارعين ما عدا ذلك المريض الى فهوة « فورنوس » ، حيث كان الفسارس الضخم الاسود الشعر يلعب البلياردو ، والمصارع الرزين القصير يجلس الى مائدة مزدحمة وامامه القهوة واللبن ، ومعه راشق السهام متوسط العمر ، وعمل جادون اخرون .

وكان الفارس الاشيب الرأس الذي يشرب كثيرا ، جالسا وامامه كأس من نبيذ « الكاتالاس » ، يحلق في سرور الى المائدة التي جلس اليها المصارع اندي ذهب شجاعته مع مصارع اخر نبذ السيف ليعود راشقا للسهام ثانية ، ومعهما اثنان من العاهرات تبدو عليهما مظاهر الانهساك .

ووقف المثنى على أحد جوانب الطريق يتحدث مع بعض الاصدقاء وكان التادل الطويل في اجتماع نقابة الفوضويين ينتظر فرصة للحديث . وجلس التادل متوسط العمر في شرفة فهوة « الفاريت » يشرب زجاجة صغيرة من البيرة . وكانت المرأة التي تملك خان « اللواركا » نائمة في فراشها ، ترقد فيه على ظهرها والوسادة نحت قدميها ، ضخمة ، سميكة ، شريفة ، نظيفة ، سهلة التعامل ، متدينة للغاية ، ولم يفتها بلاوة صلاة يومية لزوجها الذي مات منذ عشرين عاما . وكان المصارع المريض في غرفه ، وحيدا ، يرفد على فراشه ووجهه الى أسفل وقد أسند منديلا الى فمه .

والان ، في غرفة الطعام الخالية ، ربط هنري العقدة الاخيرة في المنشفين اللتين طوفتا السكينين الى ارجل المقعد ، ثم ربعه ، ووجه الارجل وعليها اسمكيتين الى الامام وامسك بالمقعد فوق رأسه وطرفا السكينتين متوجهان الى الامام مباشرة ، واحدة في كل جانب من رأسه .

قال : انه ثقيل ، انظر يا باكو . انه خطير جدا . لا تفعل ذلك » .

كان ينضح بالعرق .

ووقف باكو في مواجهته ، ممسحا بالمبدعة ، ناشرا اياها ، وقد امسك بشية منها في كل يد ، وابهامه الى اعلا ، والاصبع الاول الى اسفل ناشرا اياها ليجذب انتباه الثور .

قال : « اهجم مباشرة ، در كالثور ، اهجم مرات عديدة كما تريد » . وسأل هنري : ولكن متى سنعرف المرة التي يجب ان نصد الهجوم فيها ؟ من الافضل تحديدها بثلاث مرات ثم نقوم بنصف حركة بعدها » .

قال باكو : حسن ، ولكن اهجم مباشرة . ها . اياها الثور !

بصالح ، تعال اياها الثور الصغير .

واقبل هنري نحوه وقد خفض رأسه الى اسفل ، وهز بساكو المبدعة بمحاذاة نصل السكين حين مرت بالقرب من بطنه ، وحين اجتازته كانت بالنسبة له قرنا حقيقيا « ابيض الطرف ، أسود ، صقيلا . وحين مر به هنري ودار ليهجم ثانية عليه ، كان ثور حار الدماء هو الذي يهاجمه ، فدار كالقطر وأناه ثانية وهو يهز الوشاح في بطنه . ودار الثور وهاجم مرة اخرى ، وتقدم بقدمه بوصتين وهو

يراقب النصل المشرع ، ولكن السكين لم يمر ، بل انحرف وغاص في جسده كما لو كان زق خمر . وتفجر انبثاق حار ميخر فوق كتلة النصل الداخليه وحولها ، وهنق هنري : « آه ، آه ، دعني أخرجها دعني أخرجها » .

وانزلق باكو الى الامام على المقعد وهو ما زال ممسكا بالمبدعة، الوشاح ، وهنري يجذب المقعد بينمسا السكين تنقلب في جسده ، في جسده ، في « باكو » .

وأخرجت السكين ، وجلس على الارض في وسط البحيرة الدافئة التي تتسع . وقال هنري : « ضع المنشفة عليه ، امسكه . امسكه جيدا . ساجري في طلب طبيب . يجب ان نمسك النزيف » قال باكو : « كان يجب ان يكون هناك فح مطاوي » . كان قد رأى ذلك يستخدم في الحلبة في مثل هذه الحالات .

قال هنري وهو يبكي : « سأعود حالا ، ما أردت سوى ان أريك خطورة ذلك » .

قال باكو وصوبه يمدو آنيا من بعيد : « لا عليك ، ولكن احضر الطبيب » .

في الحلبة يرفهونك ويحملونك ، ويجرون بك الى غرفة العمليات فاذا نزلت شرايين الفخذ اخر فطرتها من الدماء قبل ان تبلغها فانهم يستدعون الفسيس .

قال باكو وهو يمسك بالمنشفة في احكام حول أسفل بطنه : « اخطر أحد الفسيس » . لم يكن بإمكانه ان يصدق ان هذا حدث له .

ولكن هنري جرى عبر طريق سان خيرونيمو الى محطة الاسعاف الاولية التي تعمل ليل نهار ، وكان باكو وحيدا . جلس في البداية ، ثم تكوم مقفيا ، ثم تمدد على الارض ، حتى انتهى كل شيء ، شاعرا ان حياته تتسلل منه كما تتسرب المياه القذرة من حوض الاستحمام حين تنزع سداده . كان فزعا ، يشعر بالخوار . وحاول ان يتلو صلاة التوبة ، ونذكر بدايتها ، ولكن قبل ان يقول ، بأسرع ما يمكنه : « آه يا الهي ، اني آسف أشد الاسف لاني أخطأت في حقا يا من نستحق حبي ، وانني أعزم عزما قويا ان . . . » شعر بالانغماء يتنابه وكان يرقد ووجهه ناحية الارض ، وانتهى الامر بسرعة كبيرة ، ان شريان الفخذ المقطوع ينزف دمه بأسرع مما تصور .

وحين كان طبيب مركز الاسعافات الاولية يصعد الدرج مصطحبا رجل الشرطة الذي أمسك بذراع « هنري » ، كانت اختنا « باكو » ما زالتنا في دار السينما « بالجران فيا » حيث شعرنا بخيبة أمل شديدة في فيلم جريتا جاربو ، الذي أظهر نجمة السينما العظيمة في بيئة حقيرة بانسة ، في حين كانتنا معناتين رؤيتها محاطة بالابهة والعظمة . واستاء الجمهور من الفيلم الى درجة بالفة ، واعلن احتجاجه بالصفير ودق الاقدام على الارض . أما نزلاء الخان الاخرون فكانوا تقريبا يفعلون ما كانوا يقومون به حين وقعت الحادثة ، ما عدا ان الفسيس كانا قد انتهيا من صلواتهما واستعدا للنوم ، وان الفارس الاشيب الشعر قد انتقل بشرابه الى المائدة التي تجلس عليها العاهران المنهكتان ، وبعد قليل غادر المقهى بصحبة واحدة منهن ، وكانت تلك التي كان المصارع الذي فقد شجاعته يأمر لها بكؤوس الشراب .

ولم يدر الصبي « باكو » بأي شيء من هذا ، ولا بالاشياء التي سيقومون بها في اليوم التالي والايام التالية بعد ذلك . لم تكن لديه أية فكرة عن الطريقة التي يحيون بها في الحقيقة ، والطريقة التي ينتهون بها ، بل انه لم يتحقق انهم قد انتهوا . مات مفعما بالاوهام، كما يقول المثل الإسباني . لم يكن لديه كثير وقت في حياته ليتخلص من أي منها ، أو حتى ليكمل صلاة التوبة في النهاية .

بل لم يكن لديه ما يكفي من الوقت حتى يشعر بخيبة الامل في فيلم « جريتا جاربو » الذي أصاب مديرها كلها بخيبة الامل مدة أسبوع كامل .

ترجمة : ماهر البطوطي